شعر البارودي

حياته وصورة عصره[1]

لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

شعر البارودي حياته ، فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان في مجموعه صورة لعصر الذي عاش فيه ، ولبيئة التي أحاطت به ، وللنهضة الثورية في الحياة حوله ، وللثورة التي تمخضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التي أصابت النهضة والثورة كليهما ، والتي نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه فيقيم به بضعة عشر عاماً وبعض عام ، يستأثر الشعر به جميعاً . وقد اختار البارودي أثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر في العصر العباسي ، وقلد أجود ما اختار ، فبعث الشعر العربي خلقاً جديداً . وشعر ماثل كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التي أرادها القدر أن تكون فذاً من الأفذاذ ، تسمو بها النشوة إلى ذروة السرور والطرب حيناً ، ويدفعها الطموح إلى مضطرب الثورة والمثل الأعلى حيناً آخر ، ثم تصقلها السن وبصقلها النفي ، فإذا الحكمة والحنين والحب تبعث إلى هذا النغم سكينة تسمو به على تأثوف من ألحان الحياة ، لا يغير من ذلك ما يدفعه النفي إلى نفس الشاعر من ألم تنزجر عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من ثورات شبابه وثورة كهولته

أما وديوان البارودي حياته ، فلا بد في تقديمه من وصف هذه الحياة ، ومن تصوير البيئة التي عاش فيها . وليس يتسع التقديم للإفاضة في الوصف والتصوير فلنتناول من جوانب هذه الحياة ، ومن نواحي هذه البيئة ما يجلي أمامنا الحالات النفسية التي أملت على الشاعر شعره . وسنرى أن هذا الوصف كثيراً ما يوضح أغراض الشاعر ، فيعيننا على إدراكها كاملة ، ويجلو لنا الفضل العظيم الذي أتمه البارودي . فبعث به الشعر العربي واللغة العربية . ومهد لنا من ألوان النفع بهما والانتفاع بتراثهما ما يرفع ذكره في الخالدين

— ١ —

ولد محمود سامي البارودي بمصر لأبوين من الجراكسة في السابع والعشرين من

[1] هذه الدراسة التي نشرها معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا في مقدمة ديوان البارودي الذي أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد نشرت في الجزء الثاني من المجلد الثاني من مجلة الرسالة ، الصادر في ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ .

شهر رجب سنة ١٢٥٥ هجرية (١٨٣٨ ميلادية) . وكان أبوه حسن حسني بك البارودي من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة في عهد المغفور له محمد علي باشا والي مصر . وكان عبد الله بك الجركسي جده لأبيه . أما لقبه « البارودي » فنسبة الى بلدة إبتاي البارود إحدى بلاد مديرية البحيرة . ذلك ان أحد أجداده الأمير مراداً البارودي بن يوسف شاويش كان مأثوراً لها ، وكان كل ملازم ينتسب في ذلك العهد الى لوائه . وكان أحفاد البارودي يرقعون بنسبهم إلى حكام مصر المماليك . وكان الشاعر شديد الاعتداد بهذا النسب في شعره وفي كل أعماله ، فكان له فيه أثر قوي في جميع أدوار حياته ، وفي المصير الذي انتهى إليه

ولقد حرم البارودي العطف الأبوي منذ نعومة أظفاره . مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره ، فكفله بعض أهله وضموه اليهم . وقد تلقى في بيتهم دراسته الاولى من الثامنة الى الثانية عشرة من عمره ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع امثاله من الجراكسة والترك وابناء الطبقة الحاكمة . فقد كانت الجندية مظهر السيادة والعزة ، ومن ثم كان لزاماً على أبناء هذه الطبقة أن يتعلموا فنونها ليتهيأوا للمناصب الرئيسية للدولة . هذا الى أن مصر كانت يومئذ في أوج النشاط الذي بثه فيها محمد علي ، والذي كان الجيش أسه وقوامه

وخرج البارودي من المدرسة الحربية في أخريات سنة ١٢٧١ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) ، وهو في السادسة عشرة من عمره . ولسوء حظه وحسن حظ الأدب كانت ولاية مصر قد آلت حينئذ الى عباس الأول ثم الى سعيد . وكان عباس قد عدل عن الخطة التي بدأها محمد علي حين رأى الدولة النهائية تنظر الى جيش مصر بعين الريبة والقلق . لذا تعطلت النهضة التي كانت متصلة بالجيش في الصناعة والتعليم ، وبدأ يحتسم على مصر جو من الركود وبات دأبت الروح المصرية في توثبها بعد الذي رأته من قوتها على غزو السودان وغزو المماليك النهائية نفسها

وأصبح عهد سعيد وخرج (الباشجاويش) محمود سامي البارودي من المدرسة الحربية في هذا الجو الراكد تستجن في جنباته أسباب اليقظة والقلق . ماذا تراه يصنع ؟ لقد سرح الجيش وأقفرت ميادين القتال من أنوية مصر ، وتسمر هو وامثاله من رجال السيف على عيش الحلوى واللعب . وكان أكثر هؤلاء رجالاً صغار الأحلام لم يشئ ان اضطربوا الى سكينهم وسكنوا الى حوانيتهم . ولعل كثيراً منهم قد سرهم البعد عن مواطن القتال وخطره ، وطاب لهم عيش الدعة والتقاعد بعارخ الفرس وعطر الجسم والثياب . أما هذا الشاب الذي لم يخمص بعد غمار الحياة والذي يجري في عروقه دم الامارة والمجد ، فقد أحس ثورة الشباب تهزه هزاً عنيفاً . تطلع الى ماضي العرب وذكر مسيرة الأعلام المصرية الى بلاد العرب وأبى سوريا وفي الأناضول ، فتمنى لو أنه لم يكن من هؤلاء الموتى وصاروا سيرتهم وسلك في

ما قبل هذا الماضي ، فرتسمت أمامه صورة أجداده الماثلة يحكمون على ضفاف النيل ، فيمتد الى عهدهم ، وتمنى لو كان معهم ، وانبعث في جسمه مسحة من الشعور بالحزن لأن الزمان فيه مجداً وسلطاناً . لكنه لم يلبث أن لاذع حين يطلب اليه الماضي أن نحققها فإذا المستقبل أمامنا مظلم عبوس

كيف يتسلى الشاب عن هذا الألم ؟ ألا سبيل إلى ميادين يخلقها وحروب يخوض غمارها مع الخالقين ؟ ان العرب أجدادنا الاولين — والعربي جدٌّ لكل من تكلم العربية — قد سجلوا في شعرهم وقائع الحرب ، وصوروا ميادينها ، وبلغوا من قوة تصويرهم أن أجروا فيها حياة لا تنبل ، حياة لا تعرف الركود ولا الضعف ولا الاستكانة . فليرجع الشاب الى ديوان الحماسة وليقرأ الشعراء الذين يصورون الزمن امام بصائرنا ، ويجعلونه ، على بعد ما بيننا وبينهم ، نسمع قعقعة السلاح ، ونرى نزال الأبطال ، ونشترك معهم في المعركة بقلوبنا وأرواحنا ، وإن لم نشترك فيها بدروعنا وسيوفنا

اندفع الشاب يقرأ الشعر العربي القديم ، فتخزن ذاكرته القوية منه كل ما طاب لها ادّكاره . وألفى البارودي في هذا الشعر روعةً وجمالاً يأخذان بالقلب ، ويحركان اللسان الى القول . وهذا الشعر لا يقف عند الحروب والميادين وما تخلعهُ على الأبطال من مجد ، بل يتناول الحياة كلها : جدها وهزلها ، حلوها ومرّها . ففيه الغزل والوصف والحكمة ، وكل ما يطمع الانسان ان يجده فيه . وأنت كلما ازددت إمعاناً في قراءته وتدقيقاً في معانيه ، اتسعت لك آفاقه ، فازددت به متاعاً وبحفظه أملقاً

وتحركت نفس الشاب لقول الشعر بعد ان توفر على مطالعته واستظهاره . لكن ! أي شعر يقول ؟ والى أي الأغراض يزع ؟ أيمدح ؟ ولكن من ؟ ولماذا ؟ أيهجو ؟ ولكن من ؟ والى أي شيء ؟ ومن بين الأغراض أنبل مما يجول بنفسه من آمال وآلام ! أليس هو البارودي سليل الماليك ، الطموح الى المجد والى الفخر بماض مؤثل ! والدم الذي يجري في عروقه ، وإن فقد أباه طفلاً وعاش يتيماً ، يسمو به على أمثاله من أرباب السيف جميعاً ، بل يسمو به على كل من في المملكة ، ويجعله وحده الجدير بأن يكون غرض شعره

هذه النزعة في شعر البارودي بدت منذ شبابه ، ومنذ بدأ قريضه يستقر لتحفظه الأجيال . والقصيدة التي رثى بها أباه وهو في العشرين من سنه تصرح بهذا المعنى واضحاً جليًّا . فهو يقول فيها إنهُ فرد من أجداده لا نظير له فيهم . وهو يكرر هذا المعنى في كل شعره طول حياته . وإعادته بقوله هو الذي سما به الى الذروة من مناسب الدولة . كما أنهُ هو الذي انتهى به إلى النفي وشعره إلى الخلود

ولقد رضي البارودي عن شعره بعد قال ، إذ رآه صورة نفسه وما تعبر اليه في

لذلك لم ينصرف عنهُ حين عيره أبناء طائفته أنهُ يحاكي النظّامين الذين يلتمسون عطف حاكم أو عطاء أمير. وكيف يسمع هم أم كيف يفهمهم وهو يقول الشعر حبًّا بأغراضه عن ان تصاغ إلاَّ في أجمل اللفظ وأروع العبارة! ولقد سبقهُ من الأمراء في الدول العربية شعراء مجيدون خلد الدهر شعرهم وأثبت التاريخ في أمجد صحفه أسماءهم. كان ابن المعتز شاعراً، وكان الشريف الرضي شاعراً، وكان أبو فراس شاعراً، وكان امرؤ القيس قبل هؤلاء جميعاً شاعراً. ولقد قرأ البارودي شعرهم جميعاً فطرب له واهتز لروعته. أفلم يقرأ من يعيرونهُ مثل ما قرأ؟ وما ذنبه اذا قعد بهم جهلهم عن اتباع بجمال الشعر وفعدت بهم قرائحهم عن صوغ مثله! وهو في هذا المعنى يقول:

تكلّمتُ كيما يعلم الناس أنني بليتُ بداء عادة الانسان أن يتكلّما
فلا يعتدي بالاساءة عاقلٌ فلا بد لابن الأيك أن يترنّما

كانت دولة الشعر ناشئة إذ ذاك. فكان عبد الله فكري ومحمود صفوت الساعاتي وعبد الله نديم وغيرهم يقولون في اغراض شتّى. فكر البارودي الباشا كان من طراز غير طراز هؤلاء جميعاً كان غيرهم بنسبه، وبتفكيره، وبمثله الأعلى في الحياة، ثم كان غيرهم بموهبته في الشعر. فهو لم يتعلم النحو والصرف والعروض والقوافي، وهو يظن الشعر ينتفي بقوله مأربًا. إنما سجع به لانهُ في سليقته، ولا بد لابن الأيك ان يترنم، وسجع على عادة الأمراء الشعراء من قبله ليخلق من جوره ميادين لمجدٍ يعوضهُ عما فات سيفه في ميادين القتال، بعد ان ردت الأقدار سيف مصر الى غمده.

على انهُ رأى الجو المحيط به لا يتسع لتحليقه ولا لطموحه. ولعله رأى كذلك ان هذا الشعر العربي الذي انصلت أقلامه بروحه قد يضيق على سعته عن تصوير نبله وروحه. لذلك سافر الى الآستانة عاصمة الدولة، والتحق بوزارة الخارجية، وتعلم اللغتين التركية والفارسية، وعكف على آدابهما. فاستظهر شعرهم وانتهى أوزانه، ودعتهُ سليقة الشاعر الى القول فقال بالتركية وبالفارسية، كما قال من قبل بالعربية.

على ان سليقة العربية كانت أصيلة في نفسه، فلم يلبث حين انتهى الى قصور على ضفاف البوسفور يقرأ دواوين الشعراء الأولين ومعاصريه ويدرسهم، ستظهر منها ما يحسب له استظهاره. فلما كانت سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٣ ميلادية) سافر الخديو اسماعيل مصطحباً معه ابن عمه الأمير يوسف كمال ليقوم بمنصب الأمير اللواء آي الشكر على ولايته. فالتحق سامي البارودي بالحاشية التي صحبته الى مقامه الجديد بالخلافة، فوسم اختياره بهذه الصحبة والتحاقه بالحاشية التي ... الى مصر في شهر رمضان من تلك السنة

— ٢ —

عاد البارودي الى مصر في الرابعة والعشرين من سنه يبدأ صفحة جديدة من حياته فقد عقد اسماعيل العزم على ان يعيد مصر سيرتها في عهد جده. فيجب ان يكون لها جيش قوي وأعلام خفاق ، ويجب ان تعود الى نهضتها في العلم والصناعة ، بل يجب ان تتطلع اليها انظار العالم كله اتجاهاً جديداً ، تقرباً اليها . ويجب لذلك ان تنقل كل ما في أوربا من اسباب الحضارة ، وأن تسير في ذلك بخطىً جبارة تجعل هذا الشاهد المصلح يرى بعينيه ثمرة سياسته وجهوده

ورقي البارودي في رتبته العسكرية اول ما نزل مصر وعين على قيادة فرقتين من الفرسان Les Gardes فتح رتبه آفاقاً من الحياة أمامه جعل عابسها يبسم له . وزاد في ابتسامها أنه لم يلبث في منصبه الجديد الا قليلاً ، ثم اوفد الى فرنسا مع جماعة من ضباط العسكرية المصرية حيث شهد استعراضات الجيش الفرنسي السنوية ، ومن هناك سافروا الى لندن ، فشهدوا من الأعمال العسكرية ما زادهم بها علماً

وعادوا جميعاً الى مصر ، فاذا الحظ يلقي البارودي مفتوح الذراعين ليضمه اليه ، فيرقى به في سنة الى رتبة « القائمقام » في فرسان الحرس Les Gardes ، ثم الى رتبة « امير الاي » ليتسلم قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص . أي شيء هذا الا أنه الجد الذي طمح اليه صبيٌ ، فضاق ان تيسر له أسبابه عجز مصر الى الاستانة أما وقد بدأ الدهر يعرف له مكانه ويهيء له أسباب العظمة طائعاً مختاراً ، بل مغتبطاً مسروراً ، فقد بدأت الامور تطمئن والعدل يعود الى مصر

أفالآن هذا الشاب ان يستقر ؟ كلا ! فقد شبت الثورة في جزيرة اقريطش (كريت) على الدولة العثمانية بعد أربعة اشهر من تسلمه تلك القيادة . وكانت سياسة اسماعيل ترمي الى مجاملة الخليفة ومساعدته ليبلغ الغاية من اغراضه . لذلك أرسل جنداً يعاون قوات جلالته على قمع تلك الثورة ، ثم كان البارودي « رئيس ياور حرب » في هذا الجند . ما كان أسعده يوم عيّن ، وما كان أشده سعادة يوم سافر ! لقد شعر بسيفه يهتز في قرابه ، وبيده تمسك مقبض هذا السيف لتضرب به الثائرين ، ورأى مجد الجندي يتجلى امامه وهو واقف على سفينة يلقي على الموج المصطخب اشراقه الهادئة المطمئنة . فلما رست به السفينة على شاطىء الجزيرة الثائرة خف يتقدم رفاقه مسرحاً بصره في الأودية والوهاد حوله ، مشوقاً أي شوق للقاء الذين خرجوا على الوفاء للدولة وتمكبروا على طاعة السلطان . وأحسن البارودي البلاء في الحرب ، فأنعم عليه السلطان بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة . لكن إنعام البارودي عليه وعلى نفسه كان أعظم من كل وسام . في هذه الحروب قال قوله التي مطلعها :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان حتى انثنى بأعنة الفرسان

كما قال في أبياته التي أنشدها بقوله :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ودارت كأس الموت على قطبها الحرب

من يومئذٍ بدأت الأنظار تتطلع الى البارودي الشاعر تطلع إعجاب وإكبار . لقد ترنم هذا الشاب بأنغام في الشعر لم يألفها أهل زمانه . فهم انما ألفوا عبارة ومرزوقاً . كان محمود صفوت الساعاتي ، أشهر معاصريه ديباجة وأقومهم عبارة ، لا يقول إلا فيمدح أمراء الحجاز أحياناً ، وولاة مصر وسادتها أحياناً أخرى ، يبتغي عطاءهم ويرجو إحسانهم . وكان ما يعرض في شعر هؤلاء المعاصرين من حكمة او فخر قولاً معاداً ، سبقهم اليه غيرهم في ديباجة أمتن ولفظ أكرم . وكانوا جميعاً متأثرين بشعر المتأخرين ، فكانت المحسنات البديعية عندهم كل شيء وكانت معانيهم في جملتها مطروقة متداولة . اما هذه القنزة التي قفزها البارودي فسما بها الى مكان الفحول من الشعراء الأولين في الجاهلية والعصور الأولى من الاسلام ، فقد أثارت عجب الناس واستثارت إعجابهم . وحق للناس ان يعجبوا . فهذا الشاب الشاعر الملهم هو الرسول الذي بعثته العناية لينفخ في الشعر العربي روحاً تنشره من الحديث الذي انطوى عليه القرون الطوال وليمهد السبيل من بعده لأبناء مذهبه : شوقي ، وحافظ ، واسماعيل صبري ، ومن نسج نسجهم وسار سيرتهم

ما الجديد الذي استرعى الأسماع في شعر البارودي ؟ أهو الأسلوب الجزل والديباجة البدوية اللذان تجليا في كثير منه ؟ لكن اسلوب الساعاتي وديباجته كانا لا يختلفان من جزالة وبداوة ، وقد نزع جميع الشعراء إبان هذه النهضة الأولى ذلك النزع ، فان قاسم البارودي وسما عليهم فلا جديد في نزعته . إنما الجديد الذي استرعى الأسماع لشعره ودعا الى الاعجاب به ، هو نزوعه الى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة ، دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية من جناس وطباق ونحوهما ، ودون اغراب في الخيال ، ان آثار الحب لم يثر الاعجاب

وفي شعر البارودي ظاهرة لعله لم يفطن لها اول الامر أحد . فهو قد اعتمد في تصويره العواطف على حاسة النظر اكثر من اعتماده على سواها . وأنت اذ تقرأ قصيدتيه اللتين أثبتنا مطلعيهما عن حرب القرم تجد في تصوير المرئيات واضحاً فيهما كل الوضوح ، وترى هذا التصوير سهلاً لا تعمُّل فيه . فهو في القصيدة الأولى يصور الليل الصارب بجرانه فوق الرؤى والمضاجع ، لا تسمع في ظلماته غير النصوص تنبعث من أسنة الحراس . وغير الجياع سيوف الثائرين المختفين في جنح الظلام ، ومن أصبح يصبح وأيت هذه الخيل قد بيت أسنة واضعة لكثرة العدو الجاثم فوقها ، ورأيت الماء أحمر قانياً لكثرة ما يختلط من دم القتلى به

ونستطيع أن نرجع الى القصيدة الثانية في هذا الجزء من الديوان لنرى صورة الحرب دائرة الرحى ، وإذا هي أخذة من الكر والفر بطرفها ، والأرض دائرة بالأبطال كأنهم

سكارى من وقع الهوى ، والشاعر يرى هذا كله ثم يقول :

صبرت لها حتى تجلت سماؤها وإني صبورٌ إن ألمَّ بي الخطبُ

وتصوير الشعور صفة بارزة في شعر البارودي كله . وذلك شأنه بخاصة في الغزل فيه الى تقليد المتقدمين . بل لقد كان هذا التصوير الوجداني لمشعوراته غايته وهو يقلد . ولائيته المشهورة التي قالها في صباه معارضاً قصيدة الشريف الرضي (لغير أصلا مني الفلا والتجنب) ، والتي مطلعها :

سوى بنجدٍ الأغاريد يطرب وغيري بالقذات يلهو ويعجب

فيها من هذا التصوير شيء غير قليل . وأنت ترى التصوير واضحاً في غير تقليد في بائيته التي مطلعها :

بين أيام لذتي وشبابي أنراها تعود بعد الذهاب

وهو يصف في هذه القصيدة مشهداً لمصر تراه أعيننا كما رآه هو ، ويصفه وصفاً قوياً يجعله حياً ناطقاً بكله النشاط والحركة . ولقد قال هذه القصيدة وهو منفي في سرنديب يأسف فيها لذهاب الشباب ويحن الى وطنه ، فاذا الوطن صورة منظورة أمامه يرسمها رسم مصور بارع

ولقد هوّنت البيئة التي عاش فيها البارودي هذا الجانب التصويري من شاعريته . فهو منذ عاد من أثر يعش بدفع ثورتها ، قد أقام نحو عشرة سنة كاملة بعيداً عن ميادين القتال عين أتاه ها باوراً (بمية) الخديو اسماعيل ، ثم رئيس ايارورية ، ثم اصطفاه الخديو كاتم سره الخاص ثم سافر في رحلتين قصيرتين الى الآستانة في مهمة سياسية تتصل بفتنة الهرسك ، ثم بفتنة البلقان واخماد الأسود

في هذه السنوات الاثنتي عشرة كانت مصر ميدان حياة ونشاط قلَّ نظيرها في أمة من الأمم : نهض بها اسماعيل بعد الكبة التي أصابتها في عهد سلفيه سعيد وعباس الأول نهضة هي أدنى إلى الثورة منها الى النشاط . أراد لها ان تقف مع الأمم الاوربية في صف الحضارة وان تكافئها في الوجود الدولي وهذه الأمم قد بلغت مكانتها في أجيال متعاقبة بذلت انفاقها جهوداً جبارة لتبلغ ما بلغته . فليضاعف ابو الأشبال الجهود ، وليجعل الزمن رهن أمره ، وليدفع مصر متضافرة معه ، قوية بقوته ، ليصل في سنوات إلى ما وصلت اليه اوربا في تلك الأجيال . وماذا ينقصه ، وينقص مصر لتحقيق هذه المعجزة ؟ العزم ! الذكاء ! الهمة ! اليأس ! هذا كله موفور لديه وفي مصر . وكل ما عليه ان يتجنب ما وقع فيه جده الأكبر فلا يناصب الدولة العثمانية العداوة فيحوج من نائب اوربا عليه فأما الدين فالحصول عليه يسير . فمصر عثمانية ، وقناة السويس التي تشق خلالها ستزيدها ثراء وتجعلها مركز الحياة في العالم . ذلك ما يؤكده ديليسبس ، وذلك ما لا سبيل الى الريب فيه . فلتنهض مصر اذن لتحقق نهضتها المعجزة التي تبهر العالم ، ومصر الناهضة القوية قديرة على ادء ديونها وعلى مضاعفة ثروتها

وأول ما يجب على اسماعيل ان تضارع عاصمته عاصمة ناپليون الثالث ، وان تكون القاهرة باريس الشرق ، وقد مضت سنوات حتى قامت مصور شاهقة على شاطىء النيل بين الجزيرة

والروضة : روضة المقياس . لكن اسماعيل كان أبعد نظراً وأعمق ذكاء من ان يكتفي بهذه المظاهر فلتفت المدارس ، ولمد السكك الحديدية ، وليم النشاط المصر أنحاء الدولة جميعاً ، وتضاءل حكومة مصر شركة قناة السويس في الجد والمثابرة ، ولكن افتتاح القناة بين البحرين الأبيض والأحمر مشهداً فذاً في تاريخ العالم كله ، تقع فيه أعين الملوك والساسة على مصر المتحضرة الناهضة ، مهد الحضارة كلهوض فرنسة وانكلترا بعدها ، وعلى اسماعيل مليك مصر ذي الأيد قائماً في قبة من السلطان تدوي أمامها أبهة اصحاب العروش في الدول الأوربية كلها

وقد رأيت البارودي في معية اسماعيل ورأيت امين سره . والبارودي شاعر قوي الحس طموح الى العلا ، فلم يكد يلحظ فقربه من صاحب العرش ، وجعل الحياة وسرها ونفسها في ملكه وضوع يده . ماذا يصنع ؟ أقم يخوان ، وأرخى لشبابه وطوى الشان العنان . فعرف الشراب ، مجالسه ، والغواني وفتنهن ، والطرب بالموسيقى وبالغناء . وقلب في هذه الأغراض جميعاً ، فما تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها . لكنك في حل من ان تسأل أأمعن في الحب وخضع لسلطانه ؟ او بلغ من إدمان الشراب وحياة اللهو ما بلغ الماجنون ؟ أم كان شعره في الغزل وفي الخمر شعر محاكاة اكثر منه تحدثاً عن غرام صادق أخذ بمجامع قلبه ، وعن اغراق في اللهو والخمر ولع بهما ؟ أحسبنا في حل من القول بأنه كان مقلداً في غزله وفي خمرياته ، وان هوى نفسه كان الى شيء غير المرأة وغير الخمر ، وان حديثه عن الخمر وعن المرأة إنما كان تقدمة الى الفخر والوصف والسياسة وغيرها من الأغراض التي يريد القول فيها ، وانه في هذه التقدمة كان ينسج على غرار الأقدمين

وما أكثر ما نسج البارودي على غرارهم ! فهو طالما راض القول معارضاً النحول الأولين ، محاولاً ان يبذهم في ديباجته وفي قوة معانيه . وقد وُفّق للتفوق عليهم في أحيان . وقصّر عن عن مداهم في أحيان أخرى . وكثيراً ما كان ينتقل في معارضاته من بيئته المصرية الحديثة الى بيئة بدوية جاهلية او بيئة اسلامية بالشام او بالعراق في عهد بني امية او بني العباس ، ثم كان يجمل القول ، فهو الخمر والنساء ، والحماسة والفخر ، اغراضاً له في القصيدة الواحدة على طراز من حسن قسمه على معارضتهم ، وكانت ذاكرته القوية تؤاتيه فيما يعارضهم فيه حتى تخاله احدهم ، ويختلط عليك الأمر فلا تريد ان تميز بين شعره وشعرهم . ومن كانت هذه حاله لم يكن غزله ولم يكن طوعه ان يعبر عن عاطفة قلبها الحب او حركتها الخمر بمقدار ما حركه الحرص على التفوق في حلبة النحول الأولين

وأنت تراه يذكر في حب ما تكاد تفقهُ حكاية حال ، كقصيدته عن غرامه بفتاة حلوان وإنما ليقبل لك القول بأن هذا الغرام لا يزيد على صورة تخيلها الشاعر ، وأقصى ما يمكن ان الظن بها صورة رآها في بعض من يجالس فأعجبته فتخيل عليها من شعره معاني الغرام ، وهل يملكه

حب ولم يقم بنفسه غرام . فالقصيدة التي تقص هذه الحكاية تبدأ بالفخر والحديث عنها ، ثم تروي حديث هذا الغرام المنتقل منه الى الفخر بقومه الذين يدفعون عنه مصارع هوله ، فهو :

رجال أولو بأس شديد ومجدة فقولهم قول وفعلهم فعل
اذا غضبوا ردوا الى الأفق شمسه وصاروا بدفاع الفقار حازن والسهل

وانت ترى تداول هذه الصور في الكثير من قصائد شبابه : حب وغزل وفخر . ولا ريب في انه كان يحس ما يقوله في هذه الأغراض جميعاً . لكن الذي لا ريب كذلك فيه ان الحب لم يحتل له يوماً ، وان الفخر لم تذهب يوماً بعقله ، فأما الفخر فكان يعبر عن مثابه الخلقية وآماله المكظومة

أقام البارودي الشعر في هذه الأغراض وفيها يتصل بها ، مستقلاً بين جدران والجزيرة ، سعيداً بمقامه الى جانب اسماعيل ، مطمئناً الى حظه بمصر ، الفق عشرة سنة كاملة . وكما اختزنت ذاكرته الشعر صدر شبابه فقد اختزنت في هذه السنوات المتعاقبة من صور مصر ما زاده حبًّا لها وتعلقاً بها ، وما جعله يتحدث في شعره عنها ويصف بديع مناظرها وصفاً لم يسبقه اليه احد . وصف نهرها الفياض ابا الخير والنعمة ، ووصف مزارعها الفسيحة تتراءى امام النظر الى حدود الأفق ، ووصف آثارها الفرعونية على نحو لعله احدث ما جدد الشعر في عهده . وصف هذا كله مستقلا بوصفه حيناً ، جاعلاً منه بعض موضوعه في قصيدة من القصائد حيناً آخر ، مستمتعاً به في الحالين ، مسبغاً عليه من روعة شعره ثوباً يزيده جمالاً ويزيد المصري له حبًّا وبه تعلقاً

فلما كانت سنة ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٨ ميلادية) أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وارسل اسماعيل جيشاً يعاون متبوعه الأعظم . وسافر البارودي مع الجيش ، و شترك في الحرب ، وكرفي عن مواقفه فيها بانعام الخليفة عليه برتبة أمير اللواء وبنيشان الشرف (الميدالية) وبالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة . ولم تصرفه ميادين القتال عن قول الشعر ، بل لقد بعث منها إلى مصر من عيون شعره ما جرى بعضه مجرى الأمثال . ومن ذا الذي لا يحفظ قوله :

اذا نحن سرنا صرح الشر باسمه وصاح القنا بالموت واستفتح الحد

وفي هذه الفترة أضاف البارودي الحنين الى الوطن الى اغراض شعره . فهذا الحنين الذي لم يكن بادياً ايام اقرباطش قد بدا في حرب البلقان يظهر قويًّا ، كما ترى في ابيات هذه القصيدة التي في مطلعها

هو البينُ حتى لا سلامٌ ولا ردُّ ولا سرهٌ يفضي بي حقًّا الوجدُ

وظل تصوير المنظور واضحاً في هذا الطور وسوحه في صور شعر البارودي جميعاً ، بل ظل يزداد قوة ووضوحاً ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص . فالبارودي إذ كان يسجل الصور في شعره لم يكن يسجلها في سكونها على ما يوجد به عشاق التصوير الصامت . بل في نشاطها وتحركها الحي رسم أمامك فن الحياة في كل ما تقع عليه عينه ما تحس به بصيرته